العلاقة بين الفلسفة والدين من حيث النشأة

إن العلاقة بين الفلسفة والدين علاقة وطيدة ومتشابكة، فالدين يحتاج إلى عقلانية الفلسفة من أجل تقديم إجابات منطقية ومقنعة على أسئلته الشائكة، والفلسفة تعمل على المشكلات الدينية وتأخذ كثيرا من مقولتها ومفاهيمها، إذ يرى جوزايا رويس J. Royce (١٨٥٥ـ ١٩١٦) أن الفلسفة منهج والدين موضوع، وأنه لا يتم توصيف العلاقة بين الدين والفلسفة بصورة دقيقة من خلال طريق واحد يبدأ من الدين أو من الفلسفة، إذ يسهم كلاهما في حياة الآخر في نفس اللحظة التي يمارسا فيها النقد المتبادل بينهما.

ويتحدث هيجل عن الدين باعتباره هو الفلسفة، فكان أبرز من وحّد بين الدين والفلسفة. «وفي أحيان قد يقف الدين بدل أو نائبا عن الفلسفة، وإذ ذاك يصبح الدين فلسفة شعبية أو العكس، فتصبح الفلسفة هي دين الخاصة.

وإلى هذا المعنى ذهب ابن رشد في كتابيه «فصل المقال..». و«الكشف عن مناهج الأدلة،» وشوبنهور . ١٧٨٨(Schopenhauer ـ)١٨٦٠في كتابه «العالم كإرادة وتمثل» وهذا لا يعني أننا نقصد بالعلاقة بين الفلسفة والدين الوقوف على أوجه التفاق بينهما فقط، تلك الأوجه التي تجعل البعض يتساءل مقرا العلاقة الوطيدة بين الدين والفلسفة أو الحكمة والديانة قائلا : «هل الحكمة إلا مولدة الديانة؟ وهل الديانة إلا متممة للحكمة؟

وهل الفلسفة إلا صورة النفس؟ وهل الديانة إلا سيرة النفس؟» لكنها الوقوف على أوجه الاختلاف أيضا. ومما سبق تبين لنا أن هناك أوجه اختلاف وأوجه اتفاق بينة وواضحة بين الفلسفة والدين، وهو الأمر الذي يمثل جوهر العلاقة بينهما، وهو ما سنبينه فيما يلي:

نشأت الفلسفة في بلاد اليونان القديمة خلال الفترة ما بين القرن السادس والقرن الرابع قبل الميلاد على يد بعض الحكماء الأوائل. وفي مقدمة هؤلاء طاليس ٦٢٤(Thales ـ ٥٤٦ق.م) وأناكسيمندر Anaximenes ق.م) وأناكسمينس٥٤٧ ـ٦١١(Anaximander (٥٨٥ـ ٥٢٨ق.م) وغيرهم من الفلاسفة الطبيعيين. وظلت الفلسفة تنمو وتكتمل تدريجيا إلى أن بلغت قمة نضجها على أيدي سقراط وأفلاطون وأرسطو. ولا يعني ذلك أن الفلسفة معجزة يونانية خالصة، ولكن يمكننا القول إن المجالات الفلسفية التي بحث فيها فلاسفة اليونان هي نفس المجالت التي بحث فيها حكماء الشرق في مصر وبابل والهند والصين وفارس مع اختلاف في بواعث التفكير وطرق البحث ووجهات النظر، إذ قصدت الفلسفة اليونانية إلى كشف الحقيقة عن طريق النظر العقلي الخالص، بباعث من المتعة العقلية وحدها، وبصرف النظر عن تلك النتائج العملية التي يمكن تؤدي إليها. فلم يقصدوا مثلا من وراء البحث عن حقيقة خلق الكون لعبادة خالقه أو لإشباع مقتضيات الحياة الدينية. فكانوا إذا بحثوا في النجوم، حاولوا أن يضعوا قوانين تفسر ظهورها واختفائها وحركاتها وسكونها. وإذا تناولوا الوجود حاولوا أن يعرفوا أقسامه وأجزاءه، وما الجزء الخالد منه وما الفاني؟ دون أن يقصدوا من وراء ذلك فائدة عملية أو دينية، وذلك لإعلاء فلاسفة اليونان من قيمة النظر على العمل. فقد كان التفلسف عندهم يعني الجهد العقل الذي يهدف إلى كشف معرفة جديدة، بدافع تحقيق المتعة العقلية الخالصة التي تبتغي كشف الحقيقة لذاتها، وسلكوا في تحقيق هذا الهدف وتلك الغاية المنهج العقلي البرهاني، إذ كان تفكيرهم النظري يخضع لمنطق العقل واستدللته الصورية، ولذلك

ازدهر المنطق الأرسطى ذو النزعة الصورية وساد حينا طويلا من الدهر. ولذلك يعتقد الكثير من المؤرخين أن الفلسفة بمعناها التقليدي قد نشأت على أيديهم، فيما أطلقوا عليه المعجزة اليونانية.

وبلا شك لم تستمر هذه الصورة النظرية الخالصة للفلسفة منذ نشأتها عند اليونان وحتى اليوم. فقد حدثت لها تطورات وتغييرات عظيمة، فلم تعد الفلسفة اليوم تقنع بالمعرفة النظرية الخالصة، بل أصبحت تحاول توجيه الحضارة الإنسانية، والارتقاء بحياة البشر، وتنظيم كافة الأمور الإنسانية. فإذا كانت الفلسفة قديما تعلم الإنسان كيف يفكر فإنها اليوم تعلم الإنسان كيف يحيا، إذ نقلت أكثر الفلسفات المعاصرة مجال التفلسف من الوجود بأسبابها البعيدة ومبادئه الأولى، إلى البحث العقلي عن أكثر الحقائق أهمي في حياة الإنسان الروحية والأخلاقية والجتماعية، بل وإلى البيئة المحيطة وكيفية المحافظة كواجب أصيل على الإنسان المعاصر وحق مستحق لكل الأجيال القادمة.

أما الدين فهو ظاهرة صاحبت الإنسان منذ نشأته على الأرض، في جميع العصور، وفي شتى أنحاء الأرض. فإن أخذ ت بما جاء في الكتب السماوية من أن آدم أبو البشر، وهو أول إنسان، فإن آدم أول الأنبياء. وإن سلمت بنظرية التطور، أو النشوء والرتقاء، فإن انبثاق الإنسان رقيا من الحيوان، أو بمعنى آخر ارتقاء الإنسان من طور الحيوانية إلى طور الإنسانية، جعله يتميز بعدة أمور منها اللغة واستخدام الألفاظ للدللة على المعاني التي يريد أن يعبر عنها، ومنها استخدام الأدوات والآلت التي يسيطر بها على الطبيعة ويسخرها لمصلحته، ومنها التدين والعبادة.

وهناك العديد من النظريات التي تفسر نشأة الدين يمكن الجمع بينها بنوع من التجاوز الذي يهدف إلى التقريب والفهم العام في ثلاث نظريات:

أولها، نظرية النشأة الفطرية للدين، إذ يرى أصحاب هذه النظرية أن الدين فطرة عقلية فطر الله الناس عليها، وهي النظرية التي تكاد تلقى إجماعا من أصحاب الأديان السماوية وبعض الفلاسفة والعلماء.

وثانيها، النظرية الجتماعية، تلك النظرية التي ترى أن الدين ظاهرة اجتماعية تختلف باختلاف الظروف الجتماعية التي يعيشها الناس من المجتمعات البدائية إلى المجتمعات المتحضرة. وهي النظرية التي يقول بها إميل دوركايم ويتبعه فيها الكثير من علماء الجتماع.

وثالثها، النظرية الماركسية، وهي تلك النظرية التي تعتبر أن العامل القتصادي هو السبب الرئيس في نشأة الدين، إذ إن الدين ينتج وينشأ عن استغراب الإنسان وابتعاده عن ذاته الأصلية بسبب الظروف القتصادية والتفاوت الطبقي الذي يرتبط في بنيته التحتية بعوامل اقتصادية وشكل الإنتاج القتصادي في المجتمع. ولذلك يرى ماركس طبقا لهذه الرؤية القتصادية لنشأة الدين أنه عبارة عن أيديولوجية الطبقة الحاكمة، حيث يقدم توصيات لحفظ النسيج ال جتماعي، ويقرر أن النظام السياسي مقد ر محتوم على أفراد المجتمع، فلا ينبغي مواجهة هذا النظام من موقع الرفض والتمرد.

فوظيفة الدين عند ماركس إذا هي تفسير العالم ومنح المشروعية للوضع الموجود ومواساة المحرومين. ومن هنا يتنبأ بزوال الدين تدريجيا مع زيادة الوعي الطبقي ومعرفة الإنسان لذاته وللعالم.

ورغم هذا الختلاف بين نشأة الدين ونشأة الفلسفة، من الممكن أن نجد هناك مواضع اتفاق بينهما من حيث النشأة، إذ إن الفلسفة بوصفها تفسيرا شاملا للكون قد يجمعها هذا بعلاقة اتفاق مع الدين، إذ إن الأخير يبحث أيضا في الكون والموجودات، ويدعو إلى التأمل في الظواهر الكونية من حيث إنها

مخلوقات صادرة عن خالق أو إله. وقد استخدمت الفلسفة بالفعل عند قدماء الشرقيين كأداة لخدمة الدين، واستخدمت في العصور الوسطى كأداة للتوفيق بين العقل والوحي، فقد رأى القديس أنسلم أن الإيمان ضروري للعقل وشرط لصحة التفكير، وقد ساعد تصور المسيحية «لله» على ذيوع مذاهب كثيرة تجعل الزاوية في تفكيرها رد كل ما في الكون من ظواهر وأشكال وحركات إلى الله الحال في الوجود وأرجع التصور اليهودي كل ما يصعب تفسيره عقليا إلى الله.